تجربتي في تحقيق تراث الشيخ محمد بن سليمان الندرومي

- مقاربة تاريخية –

د.حمدادو بن عمر

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الاسلامية

جامعة وهران

إن اهتمام المثقف المغاربي وعنايته بتراثه الثقافي والفكري، يعكس في الحقيقة نمط الحياة الفكرية والعلمية ببلاد المغارب خلال الفترة الاستعمارية، التي كانت عاملا مهما في اضطراب الحياة السياسية وخلق تراكمات في الحالة الاجتماعية، ممّا أثر سلبا على الحياة الفكرية بالبلاد، وهو أمر لا مناص منه في ظل تركيبة اجتماعية قانتة تحت سلطة حاكمة لا تميز بين القاص والدان.

ومن هنا فإن الواجب الوطني يملي علينا أن نعرف الحقيقة التراثية التاريخية، نظرا لارتباطها بالزمان الماضي ونقطة استشرافية للمستقبل. غنى تراثنا بمدونات العلماء الأعلام ومؤلفاتهم التي تناولت فنونا وعلوما مختلفة، والتي وُظِفَت في أكثر من مرة في فهم تلك العقليات والذهنيات التي لطالما أسرارا تجسدت أساسا في الكتابة الصوفية أو ما يصطلح عليها بالكتابة المنقبية. التي صورت لنا فقهاء وعلماء ومتصوفة القرن التاسع عشر؛ وطريقة نهلهم لعلوم العصر من أفواه علماء القرن الماضي؛ وتلك الزيادت والاجتهادات التي اكتسبوها خلال ممارستهم للمنحى الصوفي المغاربي المعروف آنذاك، وهذا بطبيعة الحال له دلالة واضحة تستوجب الوقوف عندها، وهذا من خلال ما تحمله من إشارات ودلالات تفهم بها خصوصيات الذاكرة المغاربية.

ولم يكن اختياري لهذا الموضوع من محل الصدف؛ بل اهتماماتي منذ الصغر والممارسة التي تأصلت في تربة نفسي في حقل الأدب الصوفي المغاربي خلال بحثنا عن المخطوطات بالغرب الجزائري، ولدت لنا شحنة علمية بحثية، تنصب أساسا في محاولة دراسة مدونات بعض هؤلاء العلماء الأعلام. وعلى هذا الأساس وقع اختيارنا على دراسة بعض مدونات الشيخ "محمد بن سليمان المستغانمي ثم الندرومي "، حيث عشت سنوات أجمع وأنقب عن ذلك الزخم التراثي الصوفي الذي تزخر به بلاد المغرب العربي.

ومن هذا المنطلق كانت تلك المدونات والتي هي في الأساس عبارة عن مكاتبات بين علماء وفقهاء تلك الفترة، أو ما يصطلح عليه بأدب المراسلات. وهي مراسلات تنتظم في سلك جدل علمي محض، أو استفسار عن حكم أو واقعة أو ما شابه ذلك.. سواء بين فقهاء وعلماء البلد الواحد أو بين فقهاء وعلماء بلاد المغرب العربي عموما. فهي ذاكرة معرفية منصهرة في ذاكرة الأجداد، وهي بذلك علاقة تكاملية روحية، تقوم أساسا على بناء الذهنيات والعقليات التي كانت سائدة خلال تلك الفترة.

إن تتبعي لتراث هؤلاء العلماء والفقهاء على اختلاف مشاربهم خطوة خطوة، وهي رغبتي في النزوع إلى حقل الدراسات التراثية الصوفية الأدبية المغاربية، جعلني أحتار نوعا ما في كيفية تناول مراسلات الشيخ "محمد بن سليمان الندرومي" مع شيوخ عصره، والتي لخصتها في ما مدى إستراتيجية البعد والرؤى العرفانية لدى المنحى التصوفي في أدب الشيخ "محمد بن سليمان" الندرومي، وهذا من خلال نصوصه الصوفية التراثية.

وكأي عمل علمي لا بد أن يواجه صعوبات خصوصا تلك المرتبطة بحياة الرجل، ونقص الدراسات حول هذه الشخصية، وما مدى تفاعلها مع الأحداث والتأريخ، إلى جانب انصهار الكل في آثار "نصوص الشيخ العرفانية"، ثم إني أعتقد

أن دراسات الحقل الثقافي الجزائري والمغاربي عموما، لن تؤتي ثمارها إذا لم تكشف لنا عن جدلية التفاعل بين التراث الصوفي والتأريخ له من جهة، وبين ذاتية الشيخ أو القطب والمريد، من جهة ثانية.

ومن أجلّ وأهمّ هذه الصعوبات أيضا هو صعوبة الحصول على تراث الشيخ "محمد بن سليمان" وتجميعه من بعض الخزائن الخاصة؛ لاسيما تلك الموجودة بالغرب الجزائري بغية تحقيقها[1] وإخراج نصوصها لعامة الباحثين والمهتمين. ولذا كنت في كثير من الأحيان مترددا في محاولتي لتناول تلك النصوص التراثية. فمرة أقدم رجلا وأأخر أخرى؛ منهمكا في محاولة إيجاد إجابات شافية لبعض التساؤلات التي حاولت طرحها منها: هل هذا الكم الهائل من التراث العرفاني ملكا خصوصيا لفلان؟ وما مدى تعامل تلك العقليات والذهنيات مع هذا التراث؟ هل يمكننا لأتفه الأسباب أن نتخلى عن فهم الذاكرة الجزائرية المغاربية التي تعكس هويتنا؟.

للإجابة على تلك الأسئلة كان لزاما علينا أن نعرف بعض المفاتيح الأساسية لإعادة ترتيب الذاكرة التاريخية، وهذا بإعادة الاعتبار لهؤلاء الرجال الأعلام الذين كانت لهم أقداما راسخة؛ لاسيما في مجال الأدب الصوفي العرفاني بمختلف روافده ومشاربه وخصوصياته. ومن هنا تبرز رمزية الحركة الصوفية المتجسدة أساسا في أعلامها العرفانيين ومدوناتهم أمثال الشيخ "محمد بن سليمان الندرومي"، الذي حاول أن يعطينا صورة مبسطة عن واقع الحياة الثقافية والفكرية التي كانت في عهده خلال القرن التاسع عشر.

عصر الشيخ محمد بن سليمان:

إن عصر الشيخ "محمد بن سليمان" من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، يفرض واقعه على الشخصية المراد ترجمتها، كشريحة داخل البنيات القروية، أو الحضرية. ولا يمكن لنا استجماع والتقاط أهم العناصر المكونة لحالته الاجتماعية، والاقتصادية، دون الاعتماد على أعمدة الظاهرة ذاتيا وموضوعيا.

فالجانب الذاتي، الذي هو الشيخ "محمد بن سليمان"، لم يكن معزولا عن العصر وملابساته، سواء تعلق الأمر بالسياسة وأحداثها، أو تعلق الأمر بالطبيعة وكوارثها. أما الجانب الموضوعي (متغيرات العصر، الاستعمار الفرنسي، تمرد واضطرابات، الجفاف، الأوبئة والأمراض الفتاكة، أزمات اقتصادية).

كل هذه العوامل المؤثرة والفاعلة كان لها دور كبير في خلق أنماط من الشرائح الاجتماعية خلال ذلك العصر. خصوصا إذا نبّهنا إلى شيوع ظاهرة التصوف وما مدى المرتبة التي كان يشكلها أهله، كسلطة روحية تؤثر في جميع ميادين ذلك العصر.

ترجمة الشيخ محمد بن سليمان الندرومي:

يمكننا التطرق إلى ترجمة الشيخ محمد بن سليمان الندرومي ثم المستغانمي من خلال معرفة اسمه ونسبه ومولده ونشأته العلمية، وذكر أهم أساتذته وشيوخه، مع إبراز أهم إجازاته فمدوناته العلمية.

اسمه ونسبه:

هو أبو محمد بن عودة بن سليمان بن عبد الله المستغانمي مولدا، الندرومي مسكنا، فقيه صوفي، ناظم، يتصل نسبه بالشيخ سيدي أبو عبد الله محمد المغوفل صاحب البطحاء، وقد كان جدّه سليمان خلال العهد العثماني، خليفة الباي حسن آخر بايات بايلك الغرب، وعبد الله هو جدّ العائلة التي ينتمي إليها الشيخ "محمد بن سليمان"، حيث كان أباه إماما بمسجد سيدي يحي الطّيار ببلاد الأناضول[2].

مولده:

إنّ الحديث عن تاريخ ولادة الشيخ "محمد بن سليمان" المستغانمي ثم الندرومي، وعن مسقط رأسه ونشأته وتكوينه، من القضايا التي لم يخصها الباحثون اليوم بدراسات وافية، ومن هنا ظلت غامضة ومسكوتا عنها في جل المصادر التي تناولته بالإشارة أو التفصيل، وتبعا لقلة هذه المصادر أو حتى المراجع، فإن الصعوبة تزداد باطراد متصاعد، وليس غريبا أن يعترف أحد الشيوخ المهتمين بتراث الشيخ "محمد بن سليمان"، قائلا أنّ:"دراسة حياة ومؤلفات الشيخ "محمد بن سليمان" من أهم الدراسات التي يجب الخوض فيها دون ملل "[3].

فقد ولد الشيخ "محمد بن سليمان" سنة 1258هـ/1868م بمدينة مستغانم، التي كانت آنذاك قبلة علمية تعجّ بحركة فكرية واسعة النطاق، ممّا أهلها فيما بعد إلى أن تنافس باقي الحواضر الثقافية والفكرية في تلك الفترة، بفضل علمائها ومشايخها وأوليائها الصالحين. ولتصبح فيما بعد حقلا روحيا خصبا نشطا، يستقطب في فلكه ذوي المكانة الرفيعة في العلم والتأليف والخلق.

نشأته العلمية:

إن الشيخ "محمد بن سليمان"، كواحد ممن أفرزتهم مجتمعات البيئة المحاطة بهم، لم يحدثنا بالتفصيل، ولا غيره عن هذه الفترة المرتبطة بالنشأة والتكوين، وإن كان العرف السائد، في أوساط تلك المجتمعات التقليدية هو أن يدخل الطفل الكتاتيب القرآنية ليحفظ منه ما قدّر له أن يحفظه، وبعد ذلك ينهل من المتون الفقهية وما يتعلق بالنحو والبلاغة وعلوم القرآن والحديث.

إلا أن هذا لا يتم إلا في بوتقة يسودها الاستقرار الاجتماعي والسياسي، وفي وسط يستجيب للتفاعلات الثقافية والعلمية وكل هاته الشروط وغيرها، إنما هي مرتبطة ارتباطا عضويا بالعامل الاقتصادي، في أبسط مستوياته الحياتية. حيث تربى في حجر والديه، وتلقى مبادئ القراءة والكتابة على يد معلّم الصّبيان بمستغانم، كما هي عادة الصّبيان في الكتاتيب.

فحفظ القرآن الكريم [4]، ثمّ سافر إلى مازونة [5]، وأخذ الفقه عن الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن الكبير، والشيخ أبوراس المازوني، كما قرأ بعض الفنون على يد خاله الشيخ المفتي سيدي مصطفى قارة[6]. كما أخذ الطريق عن سيدي بن عبد الله الغريسي ثمّ سيدي قدور بن سليمان.

وبعد وفاة الشيخ سيدي قدور بن سليمان سنة 1322هـ/ 1904م، بدأ الشيخ "محمد بن سليمان" يعطي دروسا بالمسجد الكبير بمدينة مستغانم، ويعطي الأوراد الشاذلية، وكان خليفة شيخه بلا منازع، ثمّ وقع خلاف بينه وبين أقربائه فانتقل إلى الظّهرة وبنى زاوية وبقي فيها نحو سنتين، ثمّ انتقل بعدها إلى ندرومة وسمّاها" مكرومة" فبنى بها زاوية وعمّرها بالذكر والمذاكرة.

ولقد كان الشيخ "محمد بن سليمان"[7] درقاوي الطريقة، ثمّ تفرّد بعد ذلك بطريقة خاصة به تدعى السليمانية، ثمّ حصل له إذن من الحضرة النبوية في تلقين ثلاث طرق أخرى، فضلا عن طريقته (السليمانية) وهي القادرية والطيبية والتجانية.

وأحدث تصدّره لجميع الطرق بما فيها التجانية ضجّة بين أوساط المريدين التجانيين هناك، لكن بعضهم كان يهابه لمكانته من العلم والولاية والتصريف، فلم يستطع أحد منهم الاعتراض عليه، فرفعوا الأمر للعلامة سيدي أحمد سكيرج، الذي كان حينها حديث العهد بقضاء مدينة وجدة.

إجازاته:

بعد أن أخذ الشيخ "محمد بن سليمان" العلم تحصيلا من أفواه أصحابه، آن له أن يأخذه سلوكا وطريقة وعرفانا على يد مختصّيه من يد شيوخه، فأجازه في الطريق شيخه قدور بن سليمان المستغانمي، كما أجازه بالمصافحة الشيخ علي بن الحفاف مفتي العاصمة، إلى جانب إجازة الشيخ شعيب الجليلي التلمساني له.

أساتذته وشيوخه:

إنّ الحديث عن مسألة النشأة والتكوين، يجرّنا إلى البحث عن شيوخ الشيخ "محمد بن سليمان" وأساتذته في مجال العلوم والفنون، التي كانت تشكل الثقافة السائدة في عصره. ونقصد بذلك المشيخة الروحية التي تتجسد أساسا في بحر الحقيقة [8]، من

سند المصافحة وكتب الإجازات والأسانيد المغاربية المعروفة آنذاك. والمشيخة العلمية والتي يجسدها بحر الشريعة، ونقصد بها تلك الدروس والمناهل والمشارب العلمية واللدنية. ومن شيوخه الذين أخذ عنهم علوم هاذين البحرين على سبيل المثال لا الحصر:

- الشيخ سيدي الحبيب بن البخاري المفتي بوهران
- الشيخ الحبيب بن عبد المالك المفتي بوهران
- الشيخ علي بن عبد الرحمن بوهران
- الشيخ الحاج بالقاسم بن عبد الإله بوهران
- الشيخ القاضي حشلاف العطّاف
- الشيخ سيدي عبد القادر بالقاضي
- الشيخ سيدي أحمد بالمختار بمغنية
- الشيخ القاضي شعيب بتلمسان
- الشيخ القاضي محمد بالمختار بمسيردة تلمسان
- الشيخ سيدي علّيش بمليانة
- الشيخ الطاهر المجاجي بمجاجة
- الشيخ سيدي جلول المفتي بالبليدة
- الشيخ سيدي الحاج محمد غلام الله بتيارت
- الشيخ سيدي الحاج عبد القادر بن سعدية بمليانة

علاقته بعلماء عصره:

ولقد كانت تربط الشيخ علاقات أخوة ومحبة وعلم مع بعض علماء عصره أمثال العلامة سكيرج الفاسي قاضي القضاة آنذاك، الذي لطالما كانت بينهما مساجلات فكرية في مجال الطريق وسلوكه، والأوراد..الخ. كما دارت بينهما في هذا النطاق رسائل كثيرة، منها هذه الكتب التي سنوردها في دراستنا هذه.

مدوناته العلمية:

لقد ترك الشيخ "محمد بن سليمان" إنتاجا علميا ضخما في مجالات مختلفة منها على سبيل المثال لا الحصر:

1. تحجيم أهل الإنكار من صاد الغزالة بركوب الحمار
2. النفحة الربانية في التلميذية المختارية
3. الإرشادات الرّبانية إلى المعارف اللدنية على المناهج الشرعية.
4. شرح المعاني ورقائق صلاة كنز الحقائق الموهوبة لسيدي محمد بن الحبيب المكناسي.
5. حكم تصريفات الأولياء، جواب للشيخ أبي عبد الله.
6. رسالة مطوّلة في أحوال الأولياء.
7. رسالة في الذّكر وتلقينه.
8. رسالة مفصّلة في الحضرة أو الاهتزاز.
9. رسالة في الكسب المنسوب إلى العبد وما يتعلّق به، فهي جواب للقاضي حشلاف.
10. رسالة البرهان والعيان جواب للشيخ سيدي علّيش.
11. شرح على النموذجية الكتانية.

12. شرح على القدر والمقدار من صلاة الفاتح لما أغلق.
13. رسائل في التصوف.
14. فتاوى مختلفة.
15. الديوان.

وفاته:

توفي الشيخ "محمد بن سليمان" الندرومي بموطنه" ندرومة" [9] في شهر جمادى الأولى عام 1346هـ نوفمبر 1927م. عاش خلالها تسعا وخمسين سنة كلّها علم وعرفان، وروح وريحان [10]. نهل من مشاربها وعيونها، فكان بحقّ جليل القدر مهاب الجانب، لا يخاف في الله لومة لائم.

مناقشة تراث الشيخ محمد بن سليمان الندرومي العرفاني والسلوكي:

إنّ موضوع المدونات العرفانية للشيخ "محمد بن سليمان الندرومي ثم المستغانمي" من المواضيع الجديرة بالاهتمام، التي لها بعدها الاستشرافي؛ بحيث تحاول قراءة واقع الذهنيات والعقليات التي كانت آنذاك من منظور عرفاني يجمع بين أهل الشريعة والحقيقة.

ثم إن فهم العديد من جزئيات وتراكيب بعض المسائل والظواهر باتت غير معروفة لدى الباحث والمثقف المغاربي اليوم، وهي مسائل تتعلق أساسا بالهوية واللغة والدين والتاريخ انطلاقا من شخصية ما، وهي حلقة تكاد تكون شبه مغيبة في التاريخ الثقافي المغاربي، بالرغم من الإشارة إلى نصوص تراثية تشير إلى ذلك ولكنها قليلة إذا ما قورنت بحجم دراسات المستشرقين، وهذا حتى نفهم ذاتية تلك الشخصية من خلال كتاباتها وبذلك معرفة مضامين تراث ذلك العصر الذي عاشت فيه.

ومن بين الشخصيات التي كانت لها قدرة استيعاب بعض المسائل الصوفية الشائكة معزوة بالحجج والبراهين القاطعة، وإفحام الخصم أحيانا، وباستعمال أسلوب إقناعي رزين أحيانا أخرى، إنها شخصية"محمد بن سليمان".

إنّ تلك الكتابات والمراسلات السجالية التي كانت أحيانا بين الشيخ "محمد بن سليمان الندرومي" وشيوخ عصره كالشيخ أحمد بن الحاج سكيرج مثلا؛ لا تكاد تخرج في جوهرها عن مدى قدرة الشيخ على فهم وشرح وتبيان أصول علم الحقيقة الباطني واستقرائه لآثار البسطامي [11] والجنيد ومحي الدين بن عربي وزروق مرورا بالشيخ عدة بن غلام الله والموسوم وقدور بن سليمان، وهو العلم الذي لا يضاهيه فيه أحد، فقد كان بحرا لا ساحل له، يمدّ ويجزر حيث شاء، وهذا انطلاقا من تشبعه ببعض المعارف اللدنية وتحصيله لعلمي الشريعة والحقيقة وهما علمان لا ينفكّان عن بعضهما أبدا مهما بعدت الشقة على الشيخ وتلميذه.

من هنا نجد أن تلك النصوص العرفانية تصب في قالب روحاني ينم عن عقليات شخصيات ذلك القرن. التي كانت كثيرل ما تدور حولهم مناظرات ومناقشات بالدليل والبينة قضايا تتعلق بالطريق؛ وما مدى أحقية الجمع بين الطرق الصوفية وتلقين أورادها، وبين فضائل الطريقة التيجانية عموما، وأهمية الورد التجاني وطريقته، وهو طرح نظري متّسم بالفلسفة أحيانا، وهذه واحدة من بين الطّروحات الجدلية التي دار حولها خلاف كبير جسدتها بعض المناظرات والمساجلات كما ذكرنا آنفا.

ونجد في كثير من المحطات أن هذه النصوص العرفانية كما أحببت أن أسميها تعطي تفسيرات لتعزيز موقف الشيخ حول رأيه في أحقّية الجمع بين الطرق الصوفية. ومن هنا حاولنا أن نبرز هذه العلاقة الجدلية بين علماء القرن التاسع عشر؛ باعتمادنا على شخصيتين كان لهما الحظ الوافر من تلك المساجلات العرفانية حول الطريقة التيجانية وأسرارها، وخصصنا بالدراسة شخصية"محمد بن سليمان الندرومي".

من هنا حاولنا أن نبرز الدور الهام الذي لعبته شخصية الشيخ محمد بن سليمان في لمّ شمل الحضرة الصوفية ومن ثمّ تعزيز موقعه وطريقته دون إحداث فواصل وقواطع بين الشيخ والمريد من جهة، وبين أحباب الطريقة السليمانية في حدّ ذاتها.

لقد استطاعت هذه الشخصية بفضل اجتهادها العقلي ومناظراتها ومحاوراتها بالطريقة الحجاجية على الأدلة القاطعة قطعية الثبوت والدلالة، وأقوال علماء الطريق؛ وفق رؤى منطقية تنظيرية صائبة.

ومن خلال بعض النماذج من تلك المساجلات العرفانية التي هي عبارة عن مراسلات علمية كانت بين الشخصيتين؛ والتي اخترناها لتبرز لنا القيمة الروحية المتأصلة في مواقف العلماء والشيوخ العرفانية. ثم ممارسته العلمية العملية لذلك. إنّ جنوح "محمد بن سليمان"لمثل هذه الكتابات لدليل واضح على مدى تمسّكه بالقيمة التي لا تنفصل عن العقل والواقع، والتي نلحظها في كثير من مواقفه التي تجمع بين القيم الخلقية تارة وبين الوقائع الكونية تارة أخرى.

وأثناء تصفحنا لهذه النصوص وجدناها نصوصا منسجمة فيما بنيها لا يكاد الفصل بينها وإلاّ اختلّ المعنى. تجمع في مضامينها بين الشريعة والحقيقة عقلا وفهما، فنجد "محمد بن سليمان" يدافع عنها بمنهاج تجديدي ذو مستويات مضمونية نابعة من ذات تحاول إبراز مدلولات وحقائق عن التصوف.

أمّا عن درجة كتابة "محمد بن سليمان" لتلك النصوص فهي متميزة في تراكيبها ومعانيها ونسق أفكارها وترتيبها، بلغة سليمة بسيطة وسهلة، تراتبية وإيحائية في رمزيتها، متكاملة الفهم بين الفواصل والجمل، فعن معرض حديثه عن الطريقة السليمانية وفضائلها نجده يقول[12]:" بأخذ قوة باطن القدوة لباطن المريد وطيرانها به من مقام إلى مقام بحسب استعداده من القلب إلى العقل إلى الرّوح إلى السرّ ثمّ تتنزل به الحضرة الأحمدية ثمّ المحمدية وهذه الحالة لا تنقطع بين المريد وشيخه ببعد مسافة ولا موت لأنّ الروحانية لا تموت ولا مسافة عندها زمانية ولا مكانية بشرط رابطة المحبّة أخذا من قوله ﷺ:" المرء مع من أحبّ"[13].

وإذا كان لهذا السلوك ما يبرره من القناعات الدينية والدنيوية كما عبّر عنها "محمد بن سليمان" بقوله:"تجتمع به القلوب على الحبيب المحبوب ومن جملة ما خصّ الله مولانا الموسوم المذكور أنه قيل له من حضرة غيبية محمّدية" أنت مغفور لأحبابك وأحبابهم وأولادك قلبا وصلبا، وأولادهم إلى قيام عيسى ابن مريم، وقال رسول الله ﷺ: "من دخل تحت جناحك فكأنّما دخل تحت جناح جبريل **عليه السلام**"[14].

إنّ خصوصيات الواقع الصوفي الذي عايشه "محمد بن سليمان" كفكر وممارسة في أفق مطلع القرن 13-14هـ/19-20م، توحي بأنّ هذا الواقع لم يوجد من عدم، بل له جذور فكرية وفق صيرورة تطورية كما يسميها البعض، تربط البدايات بالنهايات والسابق باللاحق. إن ما حاولنا إبرازه من مظاهر الغنى النصي التراثي الصوفي هو امتداد تاريخي لواقع حركة عرفانية ضاربة جذورها في عمق تاريخ التصوف المغاربي.

إنّ انكبابنا على التعريف بهذه الشخصيات الجزائرية التراثية، لا يفهم على أننا قدمنا نصا على نص أو انتصرنا لفلان على فلان من خلال مدوناته، وإنّما نحاول قدر المستطاع إبراز القوة الإقناعية والبلاغة الحجاجية الضاربة جذورها في كنه تاريخ التراث الإنساني والتي اتسمّ بها هؤلاء الأعلام من خلال إبراز أدوار المحبّة والذوق والنفس العرفانية، وفق تأملات ورؤى جديدة الخطاب حديثة الرمز والصورة التماثلية التي يشكلها أيّ نص تراثي مبدع في تصوراته، وفي معاييره وفي قوة إقناعه.كما نحاول استلهام العبر والعظات من تجارب هؤلاء الذين مزجوا بعض التصورات الفلسفية بالمفاهيم الكلامية ومن ثمّ اختلاطها بالمعاني الصوفية. وهكذا فإنّ قوة الاقتناع أدت إلى تداخل الممارسة التراثية تراتبا وتفاعلا، بالممارسة العملية للحياة العرفانية.

ولذا فإنّك إذا تمعنت في نصوص "محمد بن سليمان" تجدها نصوصا تربوية هادفة في مجملها فأفكارها مستوحاة من المعارف الكشفية، كانعكاس للصور بين القلب والصلب، وبين الشيخ والمريد، وبين الشيخ وأحبابه. ومن ثمّ فإنّ موسوعيته وشغفه

بمطالعة كتب الأولين من العلماء العاملين جعلته لا يأمن على سلامة معارفه، لأن فهمها وتمحيصها لا يكون إلاّ من اختصاص كبار العلماء والمتصوفة المحققين وأصحاب الرسوخ في الإيمان والعقيدة واليقين.

اعتبارا لهذه الخصوصية، ركز "محمد بن سليمان"جهوده العملية في تبيان حقيقة الشيخ والمريد، وحقيقة إتباع طريقة معينة أو الجمع بين عدة طرق، مستندا في ذلك على أدلة من الكتاب والسنة وبعض أقوال العارفين. ومن هنا جاءت معظم نصوصه التراثية مفيدة من منظور المعلومات التي قدمها، فتراه يصول ويجول بين ثنايا النصوص مبديا ملاحظاته وتعليقاته المحققة منتصرا دائما لرأيه. ونجد "محمد بن سليمان" أن ما كان يشمّر عن ساعديه ويشع "لولا تجذر الأزمة في شراينه"وكثرة القيل والقال دون سابق تحقيق في المسائل المختلفة، وهذا المعطى الأساسي قد يشرح تلك المفارقة عن علاقة "محمد بن سليمان" بالإذن التجاني، وهذه هي رؤية العالم الصوفي التي تميزه عن رؤية الفقيه، ومردّ ذلك أساسا إلى تكوين "محمد بن سليمان"الروحي والعلمي العملي من جهة، وتأثرّه بفطاحلة شيوخه مثل الشيخ"قدور بن سليمان" الذي ورثه هو الآخر من محمد الموسوم عن عدة بن غلام الله عن مولاي العربي بن عطية البوعبدلي عن مولاي العربي بن أحمد الدرقاوي.

خاتمة:

ومن هنا فإنّ "محمد بن سليمان" يعد حلقة تواصل طبيعية لذاكرة معرفية تراثية ودينية تكرّس صورة الشيخ الصوفي المربي. ثم إنّ خطاب النصوص الصوفية يرتبط أساسا بالممارسات الشعبية للدين كما يصفها أحدهم، فالخطاب الكرامي مثلا والمنقبي تنحصر قوته الرمزية والدلالية في دائرة محدودة من الدوائر المكونة للمجتمع آنذاك. ولذا نرى كثيرا من العلماء و"محمد بن سليمان"واحدا منهم يستعملون في نصوصهم التراثية سياق المحاكاة وفق مضامين خفية وأخرى معلنة، لتتبع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ورغبة إعادة بلورتها وإنتاجها. ومن هنا بقدر ما كانت النصوص التراثية خطابات تساير تطورات الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بقدر ما كانت تلك الخطابات مؤثرة وموحية، وهذا ما نكاد نلحظه في تاريخ العقليات والذهنيات ببلاد المغرب العربي.

وفي الأخير لا يسعني إلى أن أقول وبعلو همة ورفعة؛ أنني مدين إلى الجمعية الموحدية ودورها الرائد في لم شمل أشلاء التراث الجزائري عموما وتراث ندرومة على وجه الخصوص، كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى أعضاء هيئة الملتقى العلمية والتنظيمية كل باسمه، وجنود الخفاء الذين لا ينسى عملهم.

الهوامش:

1) المستشرق برجشتراسر، أصول نقد النصوص ونشر الكتب، تقديم:محمد البكري، دار الكتب، بيروت.**1969**، ص: **42**.

2) ببلدة يقال لها "تكّار" بتركيا، وبها ضريحه وهو اليوم مزارا يتبرك به ويقطنه كل الناس.

3) الشيخ أبي عبد الله شراك.

4) وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون:" اعلم أن تعلم الولدان للقرآن شعار من شعار الدين أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق به إلى القلوب من رسوخ الإيمان، وعقائد من آيات القرآن، وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل من الكلمات ". ابن خلدون، المقدّمة، مطبعة محمد عاطف، مصر، دت، ص: **418**.

5) مازونة: بالمغرب بالقرب من مستغانم، وهي على ستة أميال من البحر، وهي مدينة بين أجبل، ولها مزارع وبساتين وأسواق عامرة، ولها يوم يجتمع فيه لسوقها أصناف البربر، وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصباً. محمد بن عبد المنعم الحِميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، مطابع دار السراج، ط**2**، **1980**. ج**1**، ص:**521**.

6) مصطفى بن قارة(**1279–1376**هـ/**1862– 1956**م): أمّا عن الشيخ فهو عبد القادر بن عودة بن الحاج محمد بن قارة مصطفى الشريف الحسني، عالم جليل ومفتي، ولد بمستغانم عام **1862**م، حفظ القرآن الكريم على يد والده وهو ابن اثني عشر سنة، كفله عمّه بعد وفاته والده، فأحسن تربيته. حيث تعلم مبادئ النحو والصرف واللغة، من شيوخه: الشيخ سيدي علي بن عبد الرحمن مفتي وهران، الشيخ شعيب بن علي الجليلين الشيخ قدور بن سليمان..الخ. من مؤلفاته:قرة الأعيان في أدب تلاوة القرآن، مخطوط بحوزة الشيخ أبي عبد الله شراك، إمام مسجد الشريفية وهران. حتمية الأنوار المحمدية النبهانية مختصر المواهب اللدنية السلطانية. قال عنه أحمد بن الحاج العياشي سكيرج الفاسي:

فيا ابن قارة المفدى طبت نفسا ونفس عراك حقا لي تطيبا

توفي رحمه الله يوم الاثنين من عام 1375هـ/ 1956م. أنظر: عبد القادر بن عيسى المستغانمي، مستغانم وأحوازها عبر العصور، المطبعة العلاوية، مستغانم، ط1، 1996، ص ص: 71–75.

7) قدور بن سليمان(1259– 1323هـ/1843– 1904م):هو قدور بن محمد بن سليمان المستغانمي، ولد سنة 1259هـ/1843م بمستغانم، حفظ القرآن الكريم وأخذ العلم المعنوي والروحي عن أشياخ جهابذة عصره، ثمّ درس الشيخ بزاوية قصر البخاري على يد الشيخ الموسوم وتخرّج منها، أين أصبح يعطي أوراد الطريقة الشاذلية ليضيف إليها أوراد الطريقة التجانية التي تلقّاها على شيخها أحمد التجاني الحفيد بإذن منه. من مدوناته كتاب المرائي، شرح ياقوتة الصّفا في حقائق المصطفى، درر الفيض اللدني فيما يتعلق بالكسب العياني والسّني، خلف الشيخ جملة من التلاميذ الذين عرفوا بصلاحهم وورعهم وتقواهم أمثال الشيخ شعيب بن علي الجليلي التلمساني، والشيخ بن قارة مصطفة مفتي مستغانم، توفي رحمه الله بمسقط رأسه يوم الثلاثاء ثالث عشر من محرّم سنة 1323هـ/ 1904م، عن نيف وستين سنة. عبد القادر بن عيسى المستغانمي، مستغانم وأحوازها عبر العصور، المطبعة العلاوية، مستغانم، ط1، 1996، ص ص: 53–54.

8) الحقيقة:أو أصحاب الحقيقة:وهي عبارة عن مشاهدة باطن الأمر وأنّ الكلّ من الله تعالى وإليه. كما عرّفوا الحقيقة بأنها وحدة اليقين وحقائق الأسماء. وعند هؤلاء فإنّ للتصوف ظاهر وباطن، ظاهره الطريقة وباطنه الحقيقة. أحمد بوكاري، الإحياء والتجديد الصوفي في المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، المملكة المغربية، ط1، 2006، ص:60.

9) ندرومة: مدينة في طرف جبل "تاجرا" بأرض المغرب(الجزائر)، وهي مدينة حسنة كثيرة الزرع والفواكه رخيصة الأسعار، ولها بسائط خصيبة ومزارع كثيرة، وبينها وبين البحر نحو عشرة أميال، ولها مرسى مأمون مقصود وعليه رباط حسن يتبرك به، ويقال أنه من أتى فيه منكراً لم تتأخر عقوبته، قد عرف ذلك من بركته ومن صنع الله فيه. محمد بن عبد المنعم الحِميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت مطابع دار السراج، ط2، 1980. ج1، ص:576.

10) وقد أشار الشيخ سيدي أبو عبد الله البطيوي في مرثيته إلى سنة وفاته فقال:

وَيَحْسُنُ وَالخَمْسُونَ وَالتِّسْعَةُ حِجَّةٌ مَضَتْ أنْ يَلِي مِنْكَ المُجُونُ لِجَامَا. أنظر: وثيقة مخطوطة زودنا بها الشيخ أبي عبد الله شراك، إمام بمسجد الشريفية، وهران. فجزاه الله عنا خير الجزاء وكان الله له ولذريته.

11) هو طيفور بن عيسى المشهور بأبي يزيد البسطامي، نسبة إلى بسطام بلدة بين خرسان والعراق، ولد بها عام 188هـ، وبها توفي عام 261هـ، ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية، وكان الشيخ ابن عربي الحاتمي ينوّه به كثيرا ويسميه أبا يزيد الأكبر، أنظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني، ج1، ص: 76. رقم الترجمة: 148، وفي طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي، ص ص: 67– 74، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان، ج 1، ص: 240. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم، ج 10، ص: 33. وفي ميزان الاعتدال للذهبي، ج 1، ص: 481.

12) محمد بن سليمان، النفحة الربانية في التلميذية المختارية، مخطوط بخزانة الشيخ أبي عبد الله شراك. ورقة:8.

13) ابن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1408هـ، ج4، ص: 151.

14) يتكلم عن فائدة الانسلاخ وأنه اجتماع الهمّة على القدوة، حتّى يتمكّن له اجتماع القلب. النفحة الربانية في التلميذية المختارية، ورقة:8

15) لم نعثر على تخريجه.